قص أثر الإبل عند البجا

أوشيك آدم علي

مستخلص: التعرُّف على هوية الإنسان أو الحيوان من خلال الأثر من الملكات التي اشتهر بها بدو الصحراء، ولها سرد مستفيض في الحضارة العربية الإسلامية. وللبجا في شرق السودان أيضا باع طويل في هذه الملكة؛ فهم يستغلونها، كغيرهم من البدو، في التعرُّف على الإبل الهاربة والمنهوبة والضالة، إضافة للتعرُّف على بعض خصائص الحيوان الأخرى كالجنس والسلالة، وبعض الأعراض المرضية كالعرج والمرض وغيرها من الصفات الخاصة بالحيوان المفقود.

Abstract: Identification of human and animal identity by tracking their foot-prints on the ground is a unique capability characteristic of the Bedouins of the desert. This capability is widely employed and deeply rooted in Arab-Islamic culture. The Beja people of the Eastern Sudan are equally famous for this characteristic and use this method to track runoff, lost and stolen animals. The technique is, likewise, efficiently utilized to identify sex, breed, health status and other features of the traced animals.

كلمات مفتاحية: قص الأثر، القيافة، البدو، الإبل، البجا

مقدمة

نبذة عن القيافة وقص الأثر في التاريخ العربي الإسلامي

قبل الخوض في الحديث لابد من التطرق لبعض المصطلحات المهمة، وهي الفراسة والقيافة والقص، ونبدأ بإعطاء شرح لهذه المصطلحات ونبذة لبعض ما ورد عنها في التراث العربي الإسلامي.

الفِراسة: هي إدراك الباطن وخفايا الأمور بالنظر إلى الظاهر والاستدلال به. وجاء في الحديث الشريف "اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله".[1] وفي هذا المعنى يُروى عن الإمام الشافعي أنه رأى هو ومحمد بن الحسن رجلاً، فقال ابن الحسن إنه نجار وقال الشافعي إنه حداد فسألاه عن صنعته، فقال

(١) موقع ساحة الإقلاع الإلكتروني.

كنت حداداً والآن نجاراً. وذكر أيضاً أن معن بن زائدة قال: ما رأيت قفا رجل إلا عرفت عقله. قيل: فإن رأيت وجهه؟ قال: ذا كتاب يُقرأ. وفي السيرة النبوية ذُكر أن مجزز المُدْلِجي، وهو من بني مدلج من أحياء مضر، دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد قد ناما في قطيفة وغطيا رأسيهما وبدت فقط أقدامهما، فقال: إن هذه أقدام بعضها من بعض. فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك القول. وسبب سروره أن أسامة بن زيد كان شديد السواد، أفطس الأنف، في حين أن أباه زيد بن حارثة كان شديد البياض، وكان بعض من لا يعلم يطعن في نسب أسامة بن زيد، وكان ذلك يحزن رسول الله. ولكن عندما شبَّه مجزز المدلجي أسامة بأبيه زيداً فرح الرسول بشهادة هذا الخبير الذي أجمعت قبائل قريش على علمه ومقدرته في التفرس، واعتبرها شهادة خبير تجعل الناس يكفون عن الطعن في نسب أسامة إلى أبيه لاختلاف لونيهما. وبرع العرب في هذه الناحية من باب الزعم أن الولد إذا ولدته أمه يجب أن يكون بين هيئته وهيئة أبيه تقارب في الهيكل والشكل والطول والقصر. والفراسة في تفسيرها لعلاقات القرابة هي أشبه بعلم البصمة الوراثية في العصر الحديث، غيرأنها لا ترقى إلى مرتبة الدقة والتفسير العلمي الحديث.

القيافة: وهي اسم من الفعل، قاف ويقوف وقائف. وقاف أثره أي تتبع أثره، ويقصد بها اصطلاحاً إلحاق الأولاد بآبائهم وأقاربهم استناداً إلى علامات أو شبه بينهم. وجاء في محكم التنزيل: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً) (سورة الإسراء، الآية ٣٦). واختلف المفسرون في ما المقصود بـ"لا تقف"؛ فمنهم من قال المقصود بها لا تقل ما ليس لك به علم، وآخرون قالوا لا تتبع ما لا تعلم.

القص: هو التتبع، وقص أثره أي تتبعه شيئاً بعد شيء. وجاء في سورة الكهف (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً) (الآية ٦٤)، أي رجع سيدنا موسى وفتاه في الطريق الذي كانا قطعاه يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى مدخل الحوت.

القيافة أو قص الأثر هوعلم يبحث في تتبع أثر الأقدام والأخفاف والحوافر، ويندرج تحت قائمة المهارات الفردية التي يتميز بها الإنسان البدوي اللصيق بالبيئة حيواناً ونباتاً. والقيافة، كما جاء في كتاب المستطرف،[٢] هي على نوعين: قيافة البشر وقيافة الأثر. إذا كان قيافة البشر هي الاستدلال بصفات أعضاء الإنسان وإلحاقه بإنسان آخر لما بينهما من الشبه، فإن قيافة الأثر هي الاستدلال بالأقدام والحوافر، والأخفاف،[٣] وتحليلها والاستدلال بما يتركه الإنسان أو الحيوان من أثر لاستنتاج صفته أو أكثر من صفاته، أو معرفة مكانه أو مقصده. وعادة ما تبدأ مهارة قص الأثر مبكراً بالتعرف على آثار أقدام الأهل وأفراد العشيرة ثم تتطور إلى أن يصل الماهر من القصاصين إلى معرفة أثر الرجل من المرأة، والشاب من الشيخ، والأعمى من البصير، والثيب من البكر، ووجهة القدوم والمقصد. والعرب كانوا يعترفون بمهارة قصاص الأثر ويتقون شره أو كما جاء في قول الشاعر الأسود بن يعفر:

كذبت عليك لا تزال تقوفني كما قاف آثار الوسيقة قائف[٤]

(٢) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (١٩٩٤): المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق عبد اللطيف سامر بيتية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٢، ص ١٣٧.

(٣) جريدة البيان الإماراتية ١٩٩٨/٨/١.

(٤) القائف: قصاص الأثر، الوسيقة: الناقة المنهوبة.

وسوف نركز حديثنا على قص الأثر، وبالذات أخفاف الإبل التي هي موضوع بحثنا، مع التطرق إلى النوع الآخر لاحقاً ولكن بإيجاز. ومن المعروف أن قص أثر الحيوان أصعب من قص أثر الإنسان، ويتطلب مهارات لا تتوفر لقصاص أثر الإنسان، لأن قصاص أثر الحيوان يتعامل مع أكثر من حيوان. وكما هو معروف من كتب التاريخ أن للعرب باعاً طويلاً في تتبع آثار الإبل، ونستدل هنا بحكاية من حكايات البدو، وهي أن رجلين من القافة اختلفا في أمر بعير، وهما بين مكة والمدينة، فقال أحدهما هو بعيروقال الثاني هي ناقة. وقصدا يتبعان الأثر حتى وصلا شعب بني عامر، فإذا ببعير واقف فقال أحدهما لصاحبه هو ذا، قال الثاني نعم فاقتربا منه فإذا هو خنثى فأصاب كلاهما.(٥)

البجا وقص الأثر

ولم يكن البجا أقل دراية ولا مهارة في هذا المجال من غيرهم من أهل البادية؛ فقد اشتهروا بتتبع الآثار والاستدلال بها على الهاربين والمجرمين حتى برع بعضهم في هذا الجانب لدرجة امتهن فيها هذه المهنة التي تسمى بالقصّاص (أوبَنَ- بالبجاوية) واستعملتهم السلطات العدلية منذ أيام الاستعمار في هذا المجال، ولازال كثير منهم يعمل في هذه المهنة إلى يومنا هذا. وقد برع العرب في هذه المهنة لأن أرضهم رملية وذات طبيعة صحراوية، لذلك يمكن مشاهدة رسم القدم أو الخف على الأرض بسهولة. وأظن أن البجا تفوقوا على العرب في هذا الجانب لمقدرتهم الفائقة لتتبع الأثار والأخفاف، ليس على الأراضى الرملية الناعمة، بل حتي في الأراضي الجبلية التي لا يمكن مشاهدة خف أو أثر رجل فيها. وسوف نفصل ذلك لاحقاً.

(٥) شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، مصدر سابق، ص ١٣٧.

ما يجب توفره في قصَّاص الأثر

وقص الأثر في مفهومه العام ينظر إليه على أنه ضرب من ضروب المهارات الفردية التي أودعها الله في بعض عباده من البشر. فالشخص الذي تتوفر فيه هذه المهارة يكون حاد البصر، ثاقب البصيرة، متفتح الذكاء، واسع الخيال لدرجة أنه من رسم خف واحد على الأرض، أو ربما جزء منه، يستطيع الوصول إلى هوية الإنسان وقبيلته، عبداً أو حراً، ذكراً أو أنثى، أعوراً أم سليماً، وغيرها من الأوصاف المهمة، كما يستطيع عن طريق الأثر الوصول إلى جملة من الصفات والعيوب الجسدية للإنسان والحيوان، مثل العرج والحِمل والسلالة وغيرها. ولذلك ينظر إلى قيافة الأثر على أنها مزيج من الإلهام الرباني والذكاء الفطري الحاد والخبرة الطويلة.

يعزو إبن خلدون في مقدمته خصال الذكاء الحاد لإنسان البادية إلى غذاء البدوي المتمثل في اللحوم والألبان: "إن أهل الصحراء وأطراف الرمال تكون أغذيتهم وأقواتهم من الألبان واللحوم، لذلك نجدهم أحسن حالاً في أجسادهم وأخلاقهم من أهل التلول والمنغمسين في العيش، فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأشكالهم أتم وأحسن، وأخلاقهم أبعد عن الانحراف، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات".[٦] ربما هذه الخصال الممثلة في الذكاء الفطري هي التي تساعد البدوي في التعرف على إبله حيثما ذهبت وأينما رعت.

ومن الأشياء الغريبة في هذا المجال أن الشخص المتمرس يكون باستطاعته التعرف على قبيلة الشخص من خلال الأثر، وبالمثل أن بعض أهل البادية يستطيعون تمييز إبلهم عن إبل غيرهم عن طريق الأثر، وكذلك

(٦) عبد الرحمن بن خلدون (٢٠٠١): تاريخ ابن خلدون ومقدمته، تحقيق: خليل شحاته وسهل زكار، دار الفكر، بيروت، ص ١١٠.

باستطاعتهم التفريق بين الماعز والضأن. وما يلعب دوراًمهماً في هذه المهارة، الارتباط الوثيق بين البدوي وحيوانه، وكذلك مكونات البيئة المحيطة به؛ فهو يعرف حيواناته جميعاً شكلاً وأثراً، ولكل واحد منهااسم ولقب يدعوها به فتستجيب له.

كنت أتعجب كيف يستطيع الشخص التعرف على آثار كل حيواناته، وعندما سألت أحد رعاة الإبل من البجا إن كان التعرف على قطيع كامل من الإبل أو الضأن من الأمورالممكنة، فجاء الجواب مختلفاً، حيث قال أحدهم إنه يعرف أثر حيواناته واحداً واحداً مهما قلت أو كثرت، بل ويعرفها منذ أن كانت حيراناً صغيرة، مما يوضح الارتباط الوثيق بين البدوي وإبله. وفي الجانب الآخر يستطيع البعض التعرف على بعض إبله الأثيرة لديه، ومن خلالها يمكنه التعرف على بقية القطيع. ربما كان الرأي الأول هو الأصوب على حسب الإفادات المتكررة، وكذلك بناءً للارتباط الوثيق بين البدوي وحيوانه.

يتفاوت القصاصون في مقدرتهم في تقصي الأثر؛ فمنهم من يكون دقيقاً وحاذقاً لمهنته لدرجة تظن أن له سابق علم ومعرفة بالحيوان أوالإنسان الذي يراد تتبع أثره أو شاهده مشاهدة العين ووقف على شكله وهيئته، وذلك لدقة التفاصيل وتطابقها مع الواقع، ومنهم من هو أقل من ذلك، وآخرون بين هذا وذاك.

ما يستعين به قصاص الأثر لإنجاز مهمته

يحاول بعض القصاصين أثناء تتبعهم لأثر الحيوان الاستعانة بكل المعطيات والظروف المحيطة بهم، وما يركزون عليه في عملهم هذا في الدرجة الأولى هو مستوى ضغط خف الجمل على الأرض وملاحظة المسافة بين الخطى، وكذلك

رسمه على الأرض، إضافة لاستعانتهم بمكونات بعر الحيوان، إذ يقومون بتفتيت بعض البعرات بين أصابعهم لمعرفة النباتات التي تغذى عليها الحيوان في الفترة الأخيرة، ومن ثم يمكنهم تحديد الجهة التي قدم منها الحيوان، وهذا بناءً على علمهم المسبق بأن نباتات معينة لا تنمو إلا في مناطق بعينها، ومن خلال هذه المعلومة يمكنهم تحديد القبائل القاطنة في تلك الناحية. ويوضح هذا أن قصاص الأثر يتمتع بإلمام دقيق بالبيئة، إنساناً وحيواناً ونباتاً.

وللوقوف على المعرفة الكاملة بآثارالقطيع، ذكر لي أحد البشاريين (من القبائل البجاوية التي اشتهرت بتربية الإبل) أنه استعار من قريب له فحلاً من فصيلة **البانقير**، وهي من فصائل الجمال البشارية المشهورة، ليهجن به إبله. ومن سوء الطالع أن الولادات التي انحدرت من هذا الفحل كانت كلها إناثا إلا ذكراً واحداً، فأبقاه في إبله ورد الجمل المستعار إلى قريبه. وكان لا يلقح إبله إلا بهذا الفحل الصغيرالذي أنجب له بمرور الزمن عدداً كبيراً من الجمال والنوق. ويقول الراوي إنه إلى الآن، أي بعد مضي ما يقارب الثلاثين عاماً، يستطيع التعرف على أي ناقة أو بعير انحدر من ذلك الفحل. وهذه من المشاهد التي تتجلى فيها فراسة البدوي ومقدرته العالية على التعرف على آثار حيواناته مهما كثرت أو طال الزمن.

وعلى نفس المنوال حكى لي شخص آخر أن جده عند رجوعه من السفر كان يتتبع آثار إبله كلها وهي راجعة من الماء إلى المنزل، ومن خلال ذلك كان يستطيع التعرف على الموجودة والمتخلفة منها.

قص آثار الإبل في المناطق الجبلية

ومن الأمور التي تتجلى فيها نباهة قصاص الأثر، كيف أن الواحد منهم يتقصى أثر إبله في المناطق الجبلية التي لا يستطيع الشخص فيها رؤية رسم

خف على الحجرالأملس. فذُكر لي أن القائف أو قصاص الأثر يمعن النظرفي الأرض ويتابع في هذه الحالة تحرك الحجارة عن مواضعها - **أوَيْ منْقَلْ**، كما يسمونها بالبجاوية - ويواصل متابعة حركة الحجارة إلى أن يصل الأثر إلى منطقة مسطحة غير حجرية، وفي هذا المكان يكتفي خبير الأثر برسم خف كامل أو جزء منه على الأرض ليضع منه تصوره الكامل عن الحيوان المفقود. وفوق ذلك يمكنه تحليل رسم ذلك الأثر وربطه بالصفات الجسدية للجمل أو النافة، بمعنى آخريمكنه التعرف على جنس الحيوان ذكراً كان أو أنثي، وكذلك سنه وحالته الصحية كالعرج والعور، أو أنه يحمل أثقالاً .... إلخ. بهذه الوسيلة يمكنه التعرُّف على جملة من الصفات الخاصة بهذا الحيوان.

وفي الحقيقة أن تتبع الأثرفي المناطق الجبلية يشكِّل إحد التحديات التي تواجه قصّاصي الأثر وتتطلب مهارة قد لا تتوفر في جميعهم. وفي هذا الجانب تفوق البجا على العرب الذين لا يستطيعون قص الأثر إلا على أرض رملية يكون فيه الأثر بائناً. والقائف الماهر المتمرس يستطيع أن يعرف ما إذا كان الجمل صاعداً أم هابطاً من الجبل، وفي حالة الصعود يقولون إن أرجله الأمامية تنزلق بعض الشئ، في حين أن الجمل الهابط عادة ما تنزلق أخفافه الأربعة، ومن ثم تتضاعف عدد الحجارة المتدحرجة.

معضلة أخرى تشكل تحدياً لقصاص الأثر، وهي أن الإبل عندما ترد الماء تسير خلف بعضها البعض في مسار أشبه بالخط المستقيم، مما يجعل الآثار تتداخل مع بعضها البعض، أو ما يسمى **أُنْقال مْأتْ** بالبجاوية، أي الأثر الواحد. يخلق هذا تداخلاً في الآثار لدرجة يصبح معها من الصعب معرفة أثر بعير أو ناقة بعينها، إلا إذا لم تكن هذه الناقة أو الجمل هو آخر حيوان يمشي خلف المجموعة، ولا يكون أثره بائناً بمفرده على الأرض إذا لم يكن منفصلاً.

التعرف على الإبل النافقة من خلال الأثر

ولا تقتصر مقدرة القصاص على التعرف على الحيوانات الحية فقط، وإنما تتعداها لتشمل الحيوانات حتى النافقة منها، شريطة أن يتوفر ما يستعان به لذلك. رُوي لي في هذا السياق أن شخصين تخاصما في ناقة ذُبحت أو نفقت قبل عدة سنين وكاد أن ينشب بينهما خلاف شديد. وللفصل في القضية جيئ بقصاص الأثر، وسأل الرجل إن كان هناك ما يستعين به للتعرف على الناقة النافقة. أحضروا له خفاً للناقة هو كل ما تبقى منها. أمر الرجل بدفن الخف في الأرض وصب عليه الماء لمدة ثلاثة أيام متتالية حتي أصبح رطباً ليناً، وفي اليوم الرابع أخرج الخف ووضعه على أرض ناعمة مسطحة، ومن رسمه على الأرض استطاع أن يتعرف عليها وعلي آبائها وأمهاتها، مما أدهش الحاضرين.

لعله من المفيد أن نشير هنا إلى ما ذكره لي شخص آخر من البشاريين؛ فقد ذكر لي ذلك الشخص أن خبيرالأثر المتمرس يكفيه أن يرى فقط ثلث الخف ليصل إلى ما يحتاج إليه من التصور. وهذا النوع من تقصي الأثر مهم، وبالذات في حالة الإبل الضالة والمفقودة، وكذلك المسروقة التي يسلك بها اللصوص طرقاً جبلية وعرة لمحو أي أثر من آثار السرقة، ولإضفاء مزيد من التمويه والتضليل.

تحديد بعض عاهات وأمراض الحيوان من خلال قص الأثر

التعرف على عاهات أو أمراض الناقة أو الجمل المفقود عن طريق قيافة أو قص الأثر ليس من الأمور السهلة، وإنما يحتاج الأمر إلى تحليل للمعطيات، كما يقال في عصرنا الحديث. فمثلاً للتعرف على الحيوان الأعور يدقق في وضع الأخفاف على الأرض؛ فالخف على جانب العين السليمة يكون أكثر غوراً وظهوراً

على الأرض مقارنة بالخف المجاور للعين الأعور، وذلك بسبب الضغط الزائد والاعتماد عليه بصورة رئيسة. فضلاً عن ذلك فإن الحيوان الأعور لا يتحاشى الاصطدام بما يصادفه في الطريق من شجيرات أو كتل حجرية، ولا سيما تلك التي تكون في جهة العين العوراء؛ أما في جهة عينه السليمة فيتحاشى كل ذلك.

يعتبر العرج، بصرف النظر عن درجته أو سببه، من أسهل أنواع العاهات الجسدية التي يستطيع قصاص الأثر التعرف عليها. ففي هذه الحالة يلاحظ أن خف الرجل المصابة إما أنها لا تلامس الأرض مطلقاً (إن كان العرج كاملاً) وإن لامسته يكون ذلك بلطف شديد (في حالة العرج البسيط)، لذلك يظهر منها على سطح الأرض فقط جزء بسيط؛ وهذا يتوقف على مستوى العرج، وبهذا يستدلون على عرج الحيوان وتحديد الرجل المصابة ودرجة العرج أيضاً. فضلاً عن ذلك إن الطرق التي تحتوي على أعشاب تكشف عن العين العوراء، إذ أن الجمل الأعور يأكل من جهة واحدة في الطريق، حيث يرى بعينه السليمة.

تحديد بعض أمراض الحيوان من خلال الأثر

ويمكن للقصاص أيضاً تحديد بعض أمراض الحيوان من خلال سلوك الجمل أثناء سيره. ونستدل هنا بالجرب، وهو أهم أنواع الأمراض الجلدية في الإبل. والجرب، كما هو معروف، من الأمراض التي تتسبب في حكة شديدة لدرجة أن الحيوان يحك بجسمه كل ما هو متاح له من شجر أو حجر. وللتعرف على هذا المرض يقال إنه إذا وجدت آثار من وبر الجمل على أشواك الأشجار، فهذا يدل على أن الجمل المار بالمكان أجرب يحك جسمه باستمرار على الأشجار التي يمر بها.

تحديد هيئة الحيوان من خلال الأثر

تُحدد هيئة الجمل الذي يحمل أحمالاً ثقيلة من خلال أثره، إذ تكون أرجله الخلفية متباعدة، وتخلِّف ضغطاً غائراً في التربة، وهنا لا بد من التمييز بين مثل هذا الجمل والناقة الحامل التي تكون أخفافها الخلفية، بصورة مماثلة، أكثر غوراً في الأرض. وما يستدلون به في التمييز بينهما أن أخفاف الناقة أصغر من أخفاف الذكر، ومن ثم يمكن التمييز بينها وبين البعير الذي يحمل أحمالاً ثقيلة. إضافة إلى ذلك أن ما يميز أخفاف الناقة الحامل أنها لا تكون ملساء، بل تكون بها نتوءات يمكن مشاهدتها على سطح الأرض، وبهذه التغيرات أيضاً يستطيعون التمييز بين الحيوان الحامل وغير الحامل. وعند التفريق بين الذكر والأنثى يستدلون بأن خف الناقة أصغر نسبياً من خف البعير، إضافة إلى أن خفها يلامس الأرض بلطف، ولذلك فإن أخفافها أخف وقعاً على الأرض، في حين أن خف البعير يشغل مساحة أكبر على الأرض، ويكون أكثرغوراً في التربة. يضاف إلى ذلك أن الجمل يتبول إلى الخلف بينما الناقة يسيح بولها على رجليها، والناقة الحامل تنثر بولها على ذيلها فيتناثر على الجانبين. وإذا ظهر أثر لجمل وظهرت فيه الأرجل الأمامية مع الخلفية فهذا يدل أن الجمل يجري وهو يحمل شيئاً، ولكن إذا كانت خطواته منتظمة فهذا يدل أن الجمل طبيعي ولا يحمل شيئاً.

تمييز سلالات الإبل عن طريق الأثر

يستطيع خبراء الأثر التمييز حتى بين سلالات الإبل في المنطقة. يجدر التنويه هنا إلى أن سلالات الإبل الرئيسة في شرق السودان هي ثلاثة: **الأريريت**(السهلية)، **والمَأتْيات** (الجبلية)، **والشلقييت** (الساحلية). معيار التمييز هنا يكون على أساس بروز الأظلاف وحجم الأخفاف ووقعها على الأرض.

المأتيات مثلاً، لأنها إبل مناطق جبلية، فإن أخفافها أصغر، وكذلك أظلافها، والأخيرة نادراً ما يشاهد لها رسم على الأرض لصغرها. وبالمقارنة نجد أن فصيلة **الأريريت** لها أخفاف أكبر وأظلاف أطول. **والشلقييت**، في الجانب الآخر، تكون تكون أظلافها طويلة ومتباعدة، وبما أنها تمثل أثقل أنواع الإبل في المنطقة، فإن أخفافها مسطحة، وتحتل مساحة أكبر على الأرض، عكس ما عليه الأمر في حالة **الأريريت**.

طرق رعاية الإبل وأثرها على أثر الحيوان

وفي مجال رعاية الإبل، نجد أن بعض الأبالة يربطون حلمة أو حلمات من الضرع على عود صغير لمنع الحوار من الرضاعة، ولتوفير أكبر كمية من اللبن للأسرة، وتسمى هذه العملية في اللغة البجاوية **هَنُو**. ومثل هذه الناقة يمكن التعرف عليها لأن الحلمات المربوطة تكون ممتلئة بالحليب، مما يجعلها تضغط على الرِّجل المجاورة، ومن ثم نجد أن هذه الرِّجل تبتعد بعض الشئ عن الرِّجل الأخرى التي تجاور جانب الضرع الذي يرضعه الحوار.

وفي هذا السياق يحكى أن بجاوياً فقد ناقته التي ولدت قبل أيام فبدأ يبحث عنها مقتفياً أثرها وأثر حوارها الذي معها. وبعد مسافة طويلة من التتبع والرصد لاحظ أن شكل الأثر بدأ يتغير، وبالذات شكل الأرجل الخلفية وطريقة ملامستها للأرض، فتوصل بفراسته أن اثنين من حلماتها ربما مربوطتان، لأنه يعلم بالفطرة أن الحوار يرضع جميع الحلمات. وهنا بدأ يشك أن أحداً ربما قام بذلك. وعندما وصل إلى مكان ناقته شاهد فعلاً أن الحلمتين مربوطتان، وعلم من الشخص الذي وجد بحوزته ناقته أنه إحتاج إلى اللبن فربط حلمتين ليحلبهما وترك الحلمتين الأخريين لحوارها ليرضع. وعندما سأله عن وسيلة

تعرفه لذلك أخبره أنه لاحظ اختلافاً في حركة الرجلين الخلفيتين وطريقة ملامستها للأرض، ومن ثم استنتج أن يكون السبب هو ربط الحلمتين.

إن قيافة الأثر ليست قاصرة على البالغين ولا على التعرف على أقدام الإنسان أو أخفاف الإبل، بل إن بعض الأطفال الذين يكلفون برعاية الماعز والضأن لهم دراية مماثلة في تتبع الأثر كالبالغين والتعرف بدقة شديدة على حيواناتهم التي يرعونها، وبالذات الماعز والضأن.

قيافة البشر والحيوان

النوع الثاني من القيافة هو قيافة البشر أوالحيوان وما يستدل به في هذه الناحية هي الصفات والملامح الجسدية الخارجية، وهي أيضاً من المهارات الفردية المعروفة لدى البجا، وتعرف هذه الملكة أيضاً بالفراسة. ومن قصص العرب في هذا الجانب يحكى أن ابن أحد التجار كان في بعض أسفاره راكباً على بعير يقوده غلام أسود، فمر بجماعة فنظر إليه واحد منهم وقال: ما أشبه الراكب بالقائد، فوقع هذا الكلام في نفس ابن التاجر. عندما رجع إلى أهله اختلى بأمه وذكر لها هذه القصة فقالت أمه: "يا ولدي إن أباك كان شيخا كبيراً ذا مال وليس له ولد، فمن حرصي على المال مكنت هذا الغلام من نفسي فحملت بك، ولولا أن هذا الأمر ستعلمه غداً في الدار الآخرة لما اعلمتك به في الدنيا".(٧)

وللبجا أيضاً إلمام واسع بهذا الجانب؛ففي ما يخصُّ جانب الإبل نورد هذه الرواية: فالقصة كما رُويت لي أن شخصاً حلَّ ضيفاً على شخص آخر،

(٧) جريدة البيان الإمارتية، مصدر سابق.

وقام الأخير بواجب الضيافة والإكرام. وبعد فترة من الحديث والمؤانسة أخبره المضيف أن الجمل الذي جاء عليه هو جمله. فذهل الضيف من هذه المفاجأة وقال له: "ما هو دليلك على ذلك"؟ فرد عليه: "إن ناقة لي نفقت مباشرة بعد الولادة وعرفت أنها خلّفت وراءها حواراً، وسألت عنه في كل مكان فلم أجد من يدلني عليه، وفقدت الأمل فيه، ولكني لا أشك مطلقاً في أن الجمل الذي حضرت به اليوم إنما هو حواري المفقود وولد ناقتي التي نفقت منذ أكثر من خمسة أعوام، وأن صفاته وملامحه تطابق مطابقة كاملة لأمه". وأمام دقة هذه التفاصيل لم يجد الضيف مخرجاً من أن يسرد روايته هو مع هذا الحوار، فقال: إنه كان في بعض أسفاره إذ وجد حواراً صغيراً حديث الولادة في منطقة نائية فأشفق عليه وحمله إلى أهله وأرضعه في إبله، وأخبر من يعرفهم من الناس أنه وجد حواراً أوصافه كذا وكذا، وأن يخبروا من يرونهم من الناس حتى تصل هذه المعلومة إلى صاحبه ليأتي ليأخذه.[٨] ورغم إشهاره هذا عن الحوار إلا أنه لم يأت إليه أحد يدعي ملكيته طيلة هذه السنين المنصرمة. وأردف قائلاً: "والآن طالما أنك استطعت أن تتعرف على هذا الجمل رغم طول المدة، فلا أشك أنه لك". ثم سُويّ الأمر بأن أعطى البعير لصاحبه الأصلي نظير تعويض مالي تراضيا عليه يغطي نفقات ما صُرف عليه من رعاية وإعاشة خلال الفترة الأخيرة.

الجمع بين قص الأثر والفراسة

هناك من يجمع بين قص الأثر والفراسة أو التعرف على ملامح الحيوانات الخارجية. وأساس هذه المقدرة هو المعرفة الكاملة بالقطيع، بصرف النظر

(٨) هذه واحدة من العادات الحميدة التي يحرص البجا عليها في تعاملهم مع الحيوانات المفقودة والشاردة.

عن أعمارها وأنواعها. يظهر ذلك جلياً في القصة التالية التي رواها لي واحد من شيوخ البجا. يقول هذا الشيخ إنه كان يعرف أثر إبله كلها حتى حديثة الولادة منها، وحكى لي القصة التالية: ضاعت لي بكرة (الناقة اليافعة) لم أوسمها لصغر سنها، وبعد بحث طويل وجدتها بعد ما يقارب العامين في إبل لقبيلة أخرى على مسافة بعيدة منا. وعندما رأيتها فإذا بها سمنت وكبرت وتغير لون شعرها، ولكن بالرغم من ذلك استطعت التعرف عليها منذ الوهلة الأولى. وعندما أحضرتها إلى أهلي أنكروا علي ذلك وقالوا لي إني أتيت إليهم بناقة غير ناقتي فأجبتهم قائلاً (بأبيات من الشعر البجاوي):

تِذَنْبِ تِسِكَاتِيدَ	tithanbi tisikaateeda
تَأَبَ شِبِي سَكَنْيِيكْ	t'aba shibbe sakanyeek
إِفْتِ رِهِيتِتْ هَمُويْ بُؤُوسِيدَ	efti reheeteet hamoy b'uusiida
إِينْقَوَبْ كَالْوَوْ سَيَاسِيبْ	eengwab kalaawiw sayaasiib

المعنى:

إذا كنت أسير في هذه الوديان والخيران بحثاً عن بكرتي متتبعاً أثرها، كيف أتلفت متردداً هنا وهناك ولا أستطيع التعرف عليها حين تَمْثل أمامي بالرغم من تغير لونها وشعرها، وأنا الذي لا أتردد لحظة في التعرف عليها، ليس على شكلها فقط وإنما على آثارها وآثار آبائها وأجدادها.

خاتمة

لقد رأينا في هذا المقال أن تقصي آثار الإبل من الملكات الفردية التي اشتهر بها بعض مربِّي الإبل عند البجا، ويستغلونها في تقصي آثار حيواناتهم

الهاربة والشاردة والمنهوبة. ومن خلال الأثر يمكن التعرُّف على الصفات الجسدية والتغيرات التي طرأت عليه كالعرج والعور والحمل والمرض والجنس والسلالة وغيرها، وذلك بالتمعن في وقع الخف على الأرض ورسمه والمسافة بين الخطى. غير أن ما يتفوقون فيه على غيرهم من رعاة الإبل في الصحراء هو أنهم في المناطق الجبلية، حيث لا مجال لرسم الخف، يستطيعون تمييز الحيوان الصاعد من الهابط استناداً على كمية الحجارة المتدحرجة. وكل هذه المهارات تحتاج إلى إلهام رباني، وذكاء فطري ثاقب، وخبرة طويلة، وإلمام واسع بالبيئة ومحتوياتها من أرض ونبات.